منذ حصار الحضر عام 117 ميلادي
و العراق عصي على الغزاة

سميره الخطيب

يتساءل بعض الأصدقاء الأمريكيين عمن يقف وراء العمليات العسكرية ضد قواتهم في العراق . طبيعة ثقافة الشعب الأمريكي لا تتجاوز مسلسلات بطولة خرافية و نشرة أخبارية بإشراف الصهيونية التي تتحكم بالإعلام الأمريكي بصورة أخطبوطية . فالشعب الأمريكي مشغول بالسعي لدفع الفواتير الحكومية على أشكال أكثر من عشرين نوع ضريبة , فدرالية , ضريبة للولاية , أخرى للمقاطعة , رابعة للمحافظة , خامسة للمدينة , سادسة للقرية , سابعة للشراء وأخرى للمبيعات ' وهلم جرا .

بعد محاضرة قصيرة عن حق حقوق الإنسان وحق الشعب الواقع تحت الإحتلال بالدفاع عن الوطن رأيت أن أقرب لهم الموضوع بشكل بسيط فحدثتهم عن معركة الحضر :

أهمية معركة الحضر أنها تعكس طبيعة العراقيين منذ الأزل , كما أنها أتت بعد حصار طويل يذكرنا بالحصار سيئ الذكر الذي تعرض له العراقيون في العقد الماضي بأيد عربية أولا وأخراً .

والحضر أو "مدينة الشمس " مدينة عربية يمتد تاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد تربض في الجزء الشمالي الغربي من العراق . القبائل العربية التي قطنتها أحاطتها بسور حجري رائع يضاهي سور القدس .
ورغم انعدام الثروة النفطية آنذاك , إلا أن الدلائل تشير إلى أن المدينة كانت مرفهة وغنية ومركز تجاري أساسي بين فارس وبلاد الشام . ثروة المدينة وموقعها الجغرافي (ما أشبه الليلة بالبارحة) فتحت عيون الغرب الطامع أبدا بوطننا العربي , فقرر الإمبراطور الروماني تراجان إحتلال الحضر وجهز جيشا طائلا لمحاصرة المدينة . سارع السكان إلى إغلاق أبواب اسوارهم الحصينة وأعلنوا الكفاح المسلح حتى يتم صد الغزاة وتحرير كامل التراب الحضري .

ظل تراجان يد ك المدينة أشهرا والعرب صامدون يقاتلون بكل الوسائل المتاحة . يصف المؤرخ اليوناني ديوكاسيوس بعض ما دار بين العرب والرومان في تلك المواجهة :" نشر تراجان فرق الفرسان حول الأسوار , لكنهم سرعان ما ولوا مذعورين تحت وابل الرعود وأقواس القزح والمواد الحارقة التي سقطت عليهم ."
عن أية مواد حارقة يتحدث المؤرخ اليوناني ؟ قام العلماء العرب المحاصرين في المدينة بتصنيع قنابل مولوتوف بدائية من النفط والقطران والزفت وألقوها مشتعلة على رؤوس الأعداء , ثم ابتكروا وسيلة أخرى للمناجزة فجمع السكان الجرذان والأفاعي والعقارب والحشرات السامة وألقوها على الجيش العادي فلاذ بالفرار .

كان أمام تراجان سناتورات ينتظرون محاسبته فيما لو فشلت حملتة المكلفة , لذا قرر مضاعفة الجهد وإحكام الحصار لمنع الأخوة العرب من نصرة أهلهم في الحضر , فوجه كل جيشه الى أضعف نقاط السور وأعملوا بها المنجنيق . رد لعرب بهجوم معاكس صد الهجمة البربرية ولكن بعد أن نجح المعتدون بإحداث ثغرة واسعة .

جمع تراجان جنوده المنهكين وهنأهم على فعلتهم بسور المدينة الذي إعتبره نهاية المعارك الرئيسية : " لقد انتصرنا فاستريحوا حتى الصباح لكي ندخل مدينتنا بموكب المنتصرين . أما أنا فسوف أجلس في خيمتي آنتظر قدوم الوفد الحضري الليلة للتفاوض على الاستسلام ."

لكن الهاتف لم يدق في خيمة الإمبراطور. حاكم الحضر وعلماؤها وشعبها قرروا أن "ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة" , فجمع الحضريون قواهم ووحدوا صفوفهم وأعادوا بناءا ما تهدم من سورهم . استفاق الروم ليصطدموا بذلك الواقع الجديد . وسط الذهول من المستحيل الذي حققه العرب في تلك الليلة أخذ تراجان بالطواف حول السور مع كبار قواده وخبرائه بحثا عن ثغرة أو نقطة ضعف . راقب العرب التحركات من أعلى السور المنيع عن كثب, وفجأة نظر ملكهم عبد – سميع إلى إبن عمه سنطروق :

" هل ترى ذلك الفارس مديد القامة أنيق الملبس ؟"

"نعم , تبدو عليه الهيبة والكل يحترمونه ." أجاب سنطروق .

"هل تفكر في مثل ما أفكر ؟" سأل عبد – سميع .

" أجل . إنه الأمبراطور تراجان ."

فشد عبد – سميع قوسه وأطلق سهما واحداً باتجاه تراجان فأصابه في عنقه . لم يكن بحاجة إلى سهم آخر , ففي صباح اليوم التالي حمل الجنود إمبراطورهم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وغادروا المدينة ملاحقين بلسعات الأفاعي والعقارب وقنابل عبد – سميعطوف , وذكريات موت الإسكندر المقدوني في العراق قبل قرنين من ذلك التاريخ .

قد يشكك البعض في عروبة المدينة لكنني أملك الإثباتات الأكيدة حول عروبتها ليس بسبب الحفريات والوثائق فحسب , وليس لأنني منحت صوتي لجلالة الملك عبد – سميعطوف رئيسا وقائدا مدى الحياة , بل لسبب لا يشك بحقيقته إثنان :

أثناء ترميم المدينة تم العثور على وثيقة باللغة العربية تقول أن ملك الحضر عبد – سميع الذي كان أيضا كاهن المدينة تم إنتخابه بنسبة 100% بإجماع سكان المدينة , والقبائل العربية المجاورة , بل و التجار الذين مروا بالمدينة والوافدين المقيمين بها . نبيجة كتلك هل يعقل أن تتحقق إلا بإنتخابات عربية وبين عرب اقحاح !